

التجربة الإصلاحية في فكر عبد الحميد بن باديس

The reform experience in the thought of Abdel Hamid Ibn Badis

الدكتور شريف رضا¹، جامعة الجزائر 2 – أبو القاسم سعد الله

Dr. Sherif rida, University of Algiers 02

rida.cherif65@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2020/12/30

تاريخ القبول: 2020/09/08

تاريخ الاستلام: 2020/05/06

ملخص:

تعالج هذه الدراسة مسألة تندرج ضمن الفكر الإصلاحي العربي الحديث نعي بذلك التجربة الإصلاحية الباديسية باعتبارها تجربة متميزة في تاريخ الفكر الإصلاحي خلال القرن التاسع عشر، حيث كان للإمام ابن باديس رؤية إصلاحية حاول من خلالها الوقوف على أدواء الأمة العربية الإسلامية عموما والأمة الجزائرية بوجه خاص في محاولة لإيجاد الحلول والمخارج المتاحة للنهوض والتقدم وهذا ما تسعى إليه هذه الورقة بالتحليل والنقاش.

كلمات مفتاحية: تجربة الإصلاح، الفكر، النهضة، الفكر الباديسي، التجديد، الأمة الجزائرية.

Abstract:

This study deals with an issue that falls within the modern Arab reformist thought, by that we mean the reform experience Albadisy as a distinguished experiment in the history of reform thought during the nineteenth century, where Imam Ibn Badis had a reform vision through which he tried to find out the medecine of the Arab Islamic nation in general and the Algerian nation in particular in an attempt to find solution and exits available for advancement and progress. This is what this paper seeks to analyze and debate ..

Keywords: Repair experience; Thought; Renaissance; Badissi thought; Reneval; The Algerian nation.

¹ - المؤلف المرسل: رضا شريف، rida.cherif65@yahoo.fr

1. مقدمة:

لقد عرف العالم العربي الإسلامي صدمة عنيفة خلال القرن التاسع عشر جرّاء الاعتداءات الشرسة التي ارتكبتها الحملات الإمبريالية بمختلف ضروبها تجاه كل ما هو عربي مسلم وقد انعكست هذه الحملات سلباً على الكيان العربي والإسلامي وبشكل واضح على مقومات هويته وانتمائه الحضاري في اللغة والدين والقيم وغيرها من المقومات التي تعبر عن هوية الإنسان العربي المسلم، فاستقراء التاريخ بجزئياته وتفصيله يفيدنا بأن هناك حملات مستمرة لطمس معالم الهوية العربية الإسلامية هذه الهوية التي تمثل الشاهد التاريخي على أن العرب والمسلمون كانت لديهم حضارة عريقة وانتماء حضاري وعبقورية فكرية عبر التاريخ ولكن هذا المجد الحضاري والارتقاء الثقافي والعلمي الذي صنعه عقول فذة واستأنست به مجتمعات عربية إسلامية لحقّب طويلة من الزمن لم يبق على حاله بل أصبح أثراً بعد عين وهذا ما جعل العالم الإسلامي من محيطه إلى خليجه يعرف نكسة حضارية وتراجعا على مستوى المجالات وبفعل هذا الوضع الصعب ظهر رجال مصلحون وعلماء مجددون حاولوا من خلال تجاربهم الإصلاحية تحديد الأدواء التي أصابت الكيان العربي الإسلامي بمختلف مكوناته، وبالتالي العمل على إيجاد الحلول الممكنة لها بغرض النهوض مرّة أخرى بمختلف المكونات التي يتأسس عليها هذا الكيان.

لقد لب هؤلاء المصلحون نداء الأمة وحاولوا أن يأخذوا هذه الأزمة على عاتقهم لأن مؤشرات الذل والهوان والضعف والتراجع صارت علامة مميزة تطبع حياة الأمة خاصة وأن الاستدمار ضاعف من حجم هذه المعاناة الوجودية والحضارية المتدنية، وقد كان لهم الفضل الكبير في إنارة العقول وتشجيع الناس على أن الإصلاح ممكن ومتاح إذا ما تغيرت الذهنيات والنفوس لأن الانهزام النفسي يشكل عائقاً من عوائق النهوض، في أي عملية إصلاحية، لأجل هذا ظهر المفكر والمصلح والمجدد عبد الحميد ابن باديس قائد النهضة في الجزائر كواحد من المصلحين الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية الإصلاح والتجديد داخل الأمة العربية الإسلامية وبالخصوص داخل الأمة الجزائرية التي هي جزء لا يتجزأ من الأمة ككل. وعلى ذكر ابن باديس تسعى هذه الدراسة إلى الاشتغال على التجربة الإصلاحية في فكر ابن باديس من خلال مبادئها وأهدافها محاولة طرح جملة من الأسئلة ذات الصلة، ما هي الصورة الإصلاحية التي اعتمدها ابن باديس ضمن تجربته في الإصلاح والتجديد؟ وما هي المجالات التي راهن عليها في فعل الإصلاح؟ وهل القراءة الباديسية في الإصلاح حققت أهدافها؟

هي أسئلة وأخرى نحاول أن نقاربها بالتحليل والنقاش ضمن النصوص المتاحة لنا سواء تلك التي ارتبطت بابن باديس أو تلك التي تتقاطع مع فكره أو حتى التي تختلف معه من حيث الرؤية والمنهج ولعل غرضنا من هذه الدراسة هو الوصول إلى قراءة تحليلية نقدية من شأنها أن تكون إضافة للجهود الفكرية التي اشتغلت على نصوص ابن باديس . يجب أن تحتوي مقدمة المقال على تمهيد مناسب للموضوع، ثم طرح لإشكالية البحث ووضع الفرضيات المناسبة، بالإضافة إلى تحديد أهداف البحث ومنهجيته.

2. في مفهوم الإصلاح :

نحاول من خلال هذا العنصر الوقوف عند دلالة الإصلاح في أصولها اللغوية ودلالاتها الاصطلاحية والهدف المنهجي الذي نروم إليه من خلال هذه الممارسة هو محاولة تقديم قراءة لموضوع دراستنا المركزي أي موضوع الإصلاح باعتبار أن الوقوف على معنى ودلالة الموضوع المشتغل عليه يعد جزءاً من عملية استيعاب الموضوع ككل في تفاصيله وجزئياته أو كما أشار إلى ذلك جيل دلوز بأن الفلسفة هي فن صناعة المفاهيم، ووقفنا على الدلالة التي يحملها مدلول الإصلاح هو صناعة ونحت لغوي اصطلاحى للمفهوم فما هو الجذر اللغوي لمصطلح الإصلاح؟ وكيف يحضر هذا المصطلح في المعاجم والقواميس اللغوية العربية وغير العربية؟

الإصلاح مفرد جمعه إصلاحات وهو مصدر للفعل أصلح على وزن أَفْعَلَ ويقصد به التقويم والتغيير ويقابله الفساد قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ" وهو مصطلح قرآني قال تعالى: "إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ" 1 (ابن منظور، لسان العرب، د ت، ص 517)، "فالمصلح هو الذي يقوم بالإصلاح مجرداً عن الهوى والمنفعة الشخصية الخاصة به" 2 (جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، 2004، ص 273) وعمل المصلح في شبه بعمل الأنبياء عليهم السلام كونهم يتوجهون إلى هذا الفعل بقصد خالص نقي وبهذا يكون الإصلاح إذن تغيير جذري شامل لكل جوانب الحياة إلى حد انبعاث ولادة جديدة سواء للأفراد أو الجماعات والأمم وفي العادة يقودنا الإصلاح إلى ما يعرف بالنهضة.

هذا ونجد الدلالة اللغوية لمصطلح الإصلاح في الإنجليزية بين مفهومين "تصليح (Repair) أي إدامة وإصلاح ما هو قائم عبر التغير الجزئي وهو حال المطالب الأولى التي جاء بها أهل الإصلاح من داخل الكنيسة ومنهم أصحاب المذهب الإنساني من المسيحيين التابعين إلى الكنيسة الذين كانوا يطالبون بإصلاح أخلاقي وإداري وحرّيات عامة وإصلاح (Reform) وهو تغيير وإعادة تشكيل بشكل

كامل وهو قريب من مفهوم الثورة الجذرية يبدو أنَّ ظاهرة الإصلاح الديني تقع بين المفهومين " 3 (جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، 2004، ص 273) هذا ما يبرز لنا بأن أصل المصطلح Reforme القادم من اللاتينية يدل على معنى إعادة البناء وعلى التشكيل من جديد، من هنا يبقى الإصلاح تقويمًا ومراجعة لما حصل فيه فسادًا واعوجاجًا، وهذا ما حاول القيام به رجال الإصلاح سواء في إطار الحركة الإصلاحية الدينية في العالم الغربي، أو في إطار الفكر العربي الإسلامي الذي يعد العلامة عبد الحميد ابن باديس واحد من رواده فالتأمل لتجربة ابن باديس الإصلاحية يجدها قد انطوت على ميادين متباينة في الصورة ولكن هدفها واحد فقد خاض الرجل في ميدان السياسة والتربية والدين والأخلاق والفلسفة وهذه المجالات بالرغم من اختلاف موضوعاتها إلا أن ابن باديس عمل على الربط بينها فالخيط الناظم الذي يجمع بينها هو خدمة الصالح العام أي الأمة العربية الإسلامية، وقد سطر لكل ميدان من هذه الميادين هدفًا أو جملة من الأهداف المرجوة من إصلاحه وهذا ما سنحاول الوقوف عليه ضمن هذه الورقة البحثية.

3. أهداف الإصلاح في المجال الديني:

إن ما يمكن قوله حول أهداف الإصلاح الديني عند الشيخ ابن باديس هو أنه كان يسعى إلى تكوين رجال قرآنيين كرجال السلف الصالح، وإعداد النفوس، والعقول لقبول ما هو من مبادئ الشرع وأسس الإسلام والوقوف أمام كل تيارات الكفر والإلحاد، كما كان من بين أهدافه الحرص والمحافظة على تقاليد الدين السامية لأنها من أهم المقومات التي تقوم عليها الشخصية الجزائرية، ومن بين غاياته أيضا أنه كان يطمح إلى إرجاع المسلمين وتثبيتهم على العقيدة الصحيحة وفي هذا يقول: "إن من ثمره هذه الدعوة هي رجوع المسلمين إلى عقائد الإسلام المبنية على العلم وفضائله، المبنية على القوة والرحمة وأحكامه، المبنية على العدل والإحسان ونظمه المبنية على التعارف بين الأفراد والجماعات والتآلف والتعامل والتعاون وأن لا فضل لأحد إلا بتقوى الله ومن اتقى الله فهو أنفع الخلق بعباده" ⁴ (عبد الحميد بن باديس، آثار عبد الحميد بن باديس، د ت، ص 197).

وفي نفس السياق الذي هو الإصلاح الديني هدف ابن باديس إلى إصلاح الزوايا والوقوف في وجه الطرق الصوفية التي كانت عميلة للاستعمار، كما دعا إلى محاربة الزردات والوعادات والفدوات - وبدعة المآتم ومذكرات الولائم وكل وجوه الإسراف وأكل أموال الناس بالباطل.

وما يمكننا استخلاصه بعد نظرنا لمجمل الأهداف التي كان يسطرها ابن باديس في جانب الإصلاح الديني هو تركيزه على إعداد الرجال القرآنيين لأنه كان يعرف ويعي حق الوعي أن هذا الصنف من الرجال لا تقف في وجوههم إلا قوة الله وحدها، وهنا تظهر حكمة الشيخ في تحديد الأهداف ذات البعد العميق التي تُكوّن الرجال وتبني صرح الأمم.

إن أول ما قام به ابن باديس في هذا الجانب هو دعوته للأمة للتمسك بأحكام الكتاب، والسنة التي تحفظ لها مجدها، وكرامتها، ولسانها، وانتمائها الحضاري، لأن القرآن كتاب كامل جامع لكل أمور الدنيا والآخرة وهو الخط الفاصل حين تختلط المفاهيم وهو المرشد الصحيح القادر على توجيه النفوس وهو المنطلق لكل دعوة تسعى إلى التغيير والإصلاح، وابن باديس يوجه العقول والنفوس إلى القرآن لأنه يعلم أنه دستور هذه الأمة الذي تدرك به الطريق السليم للتجديد والتطور وفي هذا الصدد يقول الشيخ: "نري تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم وغايتنا التي تستحق أن يُكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودهم"⁵ (مجلة الشهاب، 1353هـ-1934م، ص252).

كما ناد ابن باديس بالتمسك بالعقيدة باعتبارها الضابط الذي يحكم التصرفات ويوجه السلوك لأنها العروة الوثقى المستقرة في القلوب، الراسخة في الأعماق وهي الأساس المتين الذي يرتكز عليه الدين كله، لذا كان أول عمل اتجه إليه ابن باديس في إصلاحه هو الجانب الاعتقادي لأن جل الانحرافات التي يعاني منها الشعب الجزائري في سلوكاته راجعة إلى عدوله عن التصور العقائدي ومن أجل هذا دعا إلى التمسك بالإسلام فقال: "الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده وأرسل به جميع رسله وأتمه على يد نبيه مُحَمَّد ﷺ الذي لا نبي بعده"⁶ (مُحَمَّد طاهر فضلاء، أعلام الجزائر قال الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس، 1968م، ص135).

وبما أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي فهو كفيلا بما يحمله من أدلة وشواهد مقنعة للعقل أن يرد من انحرفت فطرتهم وتاهت بهم السبل عن الهدى والرشاد وفي هذا الباب يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: "قلوبنا معرضة لخطرات الوسواس... فالذي يشبها ويربطها باليقين هو القرآن الكريم"⁷ (عبد الحميد بن باديس، أصول الدعوة الإسلامية، 1983م، ص16).

ولترسيخ المبدأ العقائدي في قلوب المسلمين الجزائريين ركز الشيخ على أساس الإيمان بالتوحيد والتنزيه عن الشرك والبدع والأوهام الخرافية ويقتضي هذا توحيد الله في ألوهيته وربوبيته وإفراده بالعبادة وفي

هذا الصدد يقول ابن باديس: "التوحيد أساس الاعتقاد وكل شرك في الاعتقاد أو في القول أو في العمل فهو باطل مردود على صاحبه"⁸ (عبد الحميد بن باديس، العقائد الإسلامية، د ت، ص 83).

كما اهتم ابن باديس في هذا الجانب بالتربية الأخلاقية في جانبها الديني وقد استنبط آراءه الأخلاقية من القرآن ونفى كل نظرة فلسفية إلى الأخلاق تخرج من إطار الإسلام وأن معيار الأخلاق هو القرآن الكريم وبذلك فإن الشيخ يربط الأخلاق بالدين ويعتبرها أمران متلازمان لا يمكن الفصل بينهما لأن الدين في أساسه مبني على الأخلاق والأخلاق دالة على العقيدة فمن كان ذا أخلاق حسنة كانت عقيدة صالحة، يقول ابن القيم الجوزية: "الدين هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين"⁹ (يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، 1973م، ص 210).

وقد أدرك ابن باديس أن المسلمين لم يضعفوا إلا عندما فرقوا بين العقيدة والعمل فكثرت البدع وصنوف الضلال، ويؤكد ابن باديس أن مخطط الفرق الباطنية وما صاحبه من تطور التصوف الفلسفي قضى على الدولة الإسلامية الكبرى في بغداد، فقد صرف أهل الفتنة جهدهم في تأويل القرآن وصرف الناس عنه، وتحريف السنة وتزييفها، ولم يقف الشيخ عند هذا الحد من التعليل والتحليل بل ذهب إلى الجانب العلمي حيث اعتبر العلم وسيلة من وسائل البلوغ إلى الدين الصحيح والخلق المتين، وبين أن العقل البشري يكتسب العلوم الصحيحة ويستخدمها في حياته فتنعكس على سلوكاته لأن أفعال وسلوكات الإنسان ناشئة عن اعتقاداته العقلية وفي هذا يقول الإمام: "وسلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا يستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره"¹⁰ (محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، 1968م، ص 51-88).

ومن المبادئ التي يستند إليها الشيخ في مجال الإصلاح الديني دعوته للمسلمين للعمل على المحافظة على تقاليد الدين التي تدعو إلى كل كمال "إنساني" والحرص على الأخوة والسلام بين الشعوب مصداقا لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (سورة الحجرات، الآية 13)، كما يجب المحافظة على هذه التقاليد لأنها من أهم مقومات الشعوب وأعظم أسباب سعادتها وهنائها لأن الناس لا يقدرّون على العيش بدون دين وأن الدين قوة عظيمة لا يستهان بها وأن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته وتخلب عليه وعليها

الأضرار والأتعاب وبهذا يعتبر الدين قوام وملجأ سلوك الأفراد والجماعات ونظاما محكما يعمل به في الحياة ويعد قوة معنوية يلتجأ إليها في تهذيب الأخلاق، وفي هذا يقول ابن باديس: "فلهذا لا نألو جهدا في خدمته بنشر مبادئه الحققة العالية وتطهيره من كل ما أحدثه فيه المحدثون والدفاع عنه من أن يمس بسوء من أهله أو من غير أهله ولأننا جزائريون نعمل للـم شعب الأمة الجزائرية" ¹¹ (مُجد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، 1980م، ص ص 159-160)، وهنا تجدر الإشارة إلى أمر مهم جدا وهو الدور الذي لعبته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان ابن باديس زعيمها الروحي مع ثلة من العلماء الأتقياء، كالشيخ البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، ومبارك الميلي، وحسن الطرابلسي، والفضيل الورثاني، وغيرهم من أعلام الجزائر الذين جندوا أنفسهم لخدمة الدين والوطن، وقد كان للجمعية مواقف تاريخية سجلها تاريخ الإصلاح في الجزائر، حيث حاربت كل ضروب البدع والمنكرات العامة المرتبطة بالمساجد والجنائز، وكل ما يشوه قدسية الدين ومكانته في نفوس الجزائريين كما حاربت فكرة الإلحاد التي دخلت إلى الجزائر، وروج لها من طرف بعض المثقفين الذين انبهروا بالثقافة الأوروبية، وقد عملت الجمعية على احتواء هؤلاء الناس بدعوتهم إلى حضور الدروس والمحاضرات التي كانت تنظم دوريا من طرف عناصر الجمعية وبالخصوص من طرف ابن باديس.

كما حاربت جمعية العلماء المسلمين في مجال الدين ظاهرة التبشير وكانت ترى أن الجمعيات التبشيرية بالجزائر حلت بثوب إنساني وهو تقديم المساعدات للناس المعوزين، والفقراء، والمرضى، لكن هدفها الباطني هو مسخ الشخصية العربية الإسلامية، وقتل كل ما له علاقة بعقيدة التوحيد، فبالرغم من قلة الإمكانات والوسائل، وصعوبة المحيط الاجتماعي الذي كانت تهيمن عليه السياسة الفرنسية بكل ألوان السيطرة، إلا أن ميلاد جمعية العلماء المسلمين أضاء للجزائريين في تلك الفترة درب النجاة وفتح أمامهم الطريق نحو التحرر من كل قيود الخوف والاستكانة ومختلف الماهر السلبية التي كانت عالقة بدينهم، ولمكانة ودور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لا يتسع المقام للحديث عن كل جزئياتها من هذا الجانب يكتب الشيخ البشير الإبراهيمي في صفحات مجلة الشريعة النبوية المحمدية بخط يده ما يلي: "إني لم مثلا أضربه لجمعيتكم هذه وهي لم تزل في المهدي إلا شيئا نسميه تبشير الصباح، هو تلك اللع المتفرقة من النور قبل أن ينشق عمود الفجر، يرتاح لها الساري في ظلمات الليل لأنه يرى فيها العنوان الصادق على قرب الخروج من المعاسف والخبط في مضلات السبل" ¹² (مجلة الشريعة النبوية المحمدية، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، د ت، ص 1). ما أروع هذا الكلام المتواضع في لكلماته والمتعالي في معانيه

ليؤكد مرة أخرى أن جمعية العلماء المسلمين لم يكن ليمثلها رجل واحد هو ابن باديس ولكن كل عنصر فيها له وزن ومكانة وقدرة على تحمل المسؤوليات فكانوا فعالين لا قوالين وهذا ما ينقصنا نحن اليوم حتى نحارب كل أشكال التراجع والهوان الذي مس الكثير من مقوماتنا.

والخلاصة من كل هذا هو أن ابن باديس عمل بكل ما أوتي من قوة سواء تحت مظلة جمعية العلماء المسلمين، أو باجتهاداته الخاصة من خلال الملتقيات والسجلات على تنقية الساحة الدينية من كل ضروب الفساد المتأتية أحيانا من جهل الناس، وأحيانا أخرى من قذارة المستدمر الذي أراد أن يسكن عقول الناس بأفكاره البربرية مهما كانت النتائج لأن شعاره في كل ذلك هو الغاية تبرر الوسيلة.

4. أهداف الإصلاح في الميدان السياسي:

لقد كانت لابن باديس أهداف وغايات سياسية هامة جدا وإذا تأملنا نجدها بعيدة المدى وليست ظرفية أي ليست أهدافا لمرحلة الاستدمار خاصة تلك التي تتعلق بالمقومات الشخصية والوحدة العامة، واللغة العربية وغيرها وفي هذا الصدد نحاول إبراز هذه الأهداف الإصلاحية في هذا المجال، حينها نكتشف البعد الفكري والحكمة السياسية للشيخ وأول هذه الأهداف هو المحافظة على الشخصية الجزائرية بجميع مقوماتها اللغوية، والدينية، والتاريخية، والجنسية، إلى جانب تحطيم أسطورة الاستدمار على أنه قضاء وقدر وفرنسا التي لا تقهر.

لقد كان يسعى إلى محاولة الربط بين الشعوب العربية برباط واحد ما دامت الشروط المؤدية إلى ذلك متوفرة من وحدة في اللغة والجنس والتاريخ والعادات والتقاليد وفي هذا يقول: "هذه الأمة العربية تربط بينها زيادة على رابطة اللغة رابطة الجنس، رابطة التاريخ ورابطة الأمل ورابطة الأمل، فالوحدة الأدبية متحققة بينها لا محالة ولكن هل بيتها وحدة سياسية؟" ¹³ (محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، 1980م، ص239).

وقد كانت له أهدافا أخرى فيما يتعلق بالجزائر التي كانت ترمي إلى مقاومة الاستدمار بواسطة خطط محكمة تدرج ضمن إستراتيجية من جهة، وتحكيم النظرة الواقعية العلمية في تكييف المراحل التقنية من جهة أخرى.

كما كان يهدف إلى جعل السياسة جزءاً من الدين ولم يكن يريد الفصل بين الدين والسياسة لأنه "كان يعلم أن كل بلاء ومحنة حلت بالمسلمين إنما كان مصدرها انعزال العلماء عن المجتمع والسياسة

وكذلك جهل الحكام واستبدادهم وانقيادهم لشهوة السلطة"¹⁴ (سلوادي حسن عبد الرحمان، عبد الحميد بن باديس مفسرا، 1984م، ص 208).

وخلاصة القول أن الهدف العام والأساسي الذي كانت تهدف إليه الخطة الباديسية في العمل الإصلاحي السياسي، الذي ناضل من أجل تحقيقه هو تحرير الشعب الجزائري من عبودية الاستعمار بجميع أنواعه.

إن من أبرز الجوانب التي تلفت نظر الباحث في شخصية ابن باديس هو جانب المفكر السياسي فيه، فقد كان يهتم بالميدان السياسي ويتناقش فيه ويتحدث إلى الجماهير عنه لكنه لم يكن يقتصر في تناوله على الجانب الآتي -الحاضر- الذي يشترك في تصويره كل المثقفين بل كان يتجاوز ذلك إلى تحليل كل الأبعاد تحليلًا عميقًا، وكان هو يتعرض لقضية سياسية لا يفوته أن يستخلص المبادئ العامة التي تقوم عليها ويسوغها صياغة تصلح معها لأن تكون منهاجا كاملا وليس مجرد مقال عابر أو خطبة سياسية جوفاء ومن أبرز مميزاته في هذا المجال أنه كان يهتدي لأحسن الشعارات تعبيرا عن طبيعة المرحلة، فمثلا كان الشعار الذي يضعه على غلاف "الشهاب" في الثلاثينات هو: الحق والعدل والمواخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين يقومون بجميع الواجبات، وهذا الشعار يعد تعبيرا منه عن اهتماماته بمرحلة معينة من مراحل الكفاح السياسي وقد ظل ابن باديس يعمل في إطار هذا الشعار سنوات مستعملا مختلف الحجج المنطقية التي تنطبق على طبيعة كل ظرف.

إنما ذكرناه آنفا يعد جانبا نظريا في الفكر السياسي الباديسي أما الجانب العملي فيه فلقد قاد ابن باديس معركة الوطن الجزائري بمهارات عالية ففي سنة 1933م -مثلا- وقف يتهم الوالي بالتدخل في الشؤون الدينية لمسلمي الجزائر على نحو مخالف للقانون الفرنسي وقد وجه نداءً للأمة الجزائرية ونوابها سنة 1937م مشيرا فيه: إلى ضرورة عدم اليأس من الاتفاق مع الاستعمار وضرورة الثقة بالنفس لأن فرنسا قد تجاهلت قيمة الوطنية الجزائرية ثم ذكر مواطنيها بمواقف -دلاديه- من الوفد الجزائري سنة 1936م عندما أعلن صراحة أنه يعارض كل المعارضة في إعطاء الجزائريين حق النيابة البرلمانية ما داموا متمسكين بحالتهم الشخصية الإسلامية.

وردا على ما صرح به وزير الحربية الفرنسية تأخذ ابن باديس العزة الإسلامية والعربية فيقول: "حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى أو ترى أكثريتها ذلك كثير علينا... ويسمعنا كثير منها في شخصيتها الإسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا لنُدع الأمة

الفرنسية ترى رأيها في البرلمان ولنتمسك عن إيمان وأمل بشخصيتنا ولنطالب بالمساواة التامة في جميع الحقوق في وطننا وأولها المساواة في المجالس النيابية"¹⁵ (مجلة الشهاب، 1353هـ-1934م، ص226). كما قام ابن باديس في 29 أوت 1937م بالتهديد بالبدء في مقاطعة المجالس النيابية ما لم ينل الجزائريون حقهم في المساواة. "كما دعا جميع الأحزاب إلى تناسي الخلافات والتسامي عن النزاعات الشخصية وإلى الوقوف صفا واحدا كما وقفوا سابقا مع فرنسا"¹⁶ (محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، 1968م، ص74).

وإلى جانب ما ذكرنا فقد كان لابن باديس مواقف سياسية هامة تمخضت عن تدهور الأحوال وتعمق الهوة بين الجزائريين والإدارة الفرنسية، خاصة تلك التجاوزات التي قامت بها الإدارة الفرنسية كغلق المساجد في وجه العلماء والمدارس في وجه الأطفال ومنع إعطاء رخص التعليم وغيرها من التجاوزات وأهم هذه المواقف:

- تقديمه مطالب خطية ضمنها الأوضاع والمعاملات الخاصة في قضايا الجند والتعليم الابتدائي ومساواة العمال الجزائريين بالعمال الفرنسيين. "وفيما يخص النيابة طالب تسوية النواب الجزائريين بالنواب الفرنسيين وإعطاء حق الانتخاب لجميع الجزائريين واعتبار اللغة العربية لغة رسمية كاللغة الفرنسية وتسليم المساجد للفرنسيين وتأسيس كلية دينية وتنظيم القضاء وتنظيم العدالة بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية"¹⁷ (فهيم سعد، حركة ابن باديس ودورها في يقضة الجزائر، 1983م، ص ص 118-119).

- مناداته للشعب الجزائري وأحزابه بضرورة عقد مؤتمر إسلامي عام تدرس فيه وضعية الجزائر، كما ناد بمقاطعة الاحتفالات الرسمية التي كان من المقرر إقامتها تخليدا للذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة لأن الغاية من الاحتفالات هي إذلال الجزائريين.

- أما موقفه من سياسة الإدماج والتجنس فقد نبه ابن باديس إلى خطورة سياسة الإدماج والتجنس ودعا إلى محاربة دعاوتها، "وذلك لأنه بفضل نظرتة الثاقبة يدرك النتائج الوخيمة التي تنجز عن مثل هذه السياسات"¹⁸ (شريط عبد الله ومُجد الملي، الجزائر في مرآة التاريخ، 1965م، ص223)، وفي

هذا المجال لابد أن نشير إلى الدور الذي لعبته جمعية العلماء المسلمين التي كان يرأسها الشيخ والتي تأسست عام 1931م، وقد حاربت فكرة الإدماج وقضت على الاندماجية في المعهد.

وإلى جانب كل هذا فقد كان للشيخ إرادة سياسية كبير خاصة في طبيعة اقتراحاته ومحاولاته الشجاعة في كل ما من شأنه أن ينقذ الأمة الجزائرية ويحل أزمتها على أكثر من صعيد وهذا "محفوف قداش" يكتب عن ابن باديس فيصفه بالرجل المصلح والسياسي الحنك الذي عجزت فرنسا عن إسكاته حيث قال: "لقد وضع الشيخ برنامجا سياسيا يبحث فيه الشعب الجزائري على المطالبة بالحقوق والوقوف جنباً لجنب مع كل الأحداث ويساعد قاداته للوصول إلى الهدف الحقيقي وهو طرد الاستعمار والعيش في الحرية التي يحلم بها كل أفراد الشعب" ¹⁹ (Kadache Mahfoud, Histoire de nationalisme (Algérien, p418).

وخلاصة القول فإن ابن باديس كان رجلا سياسيا ومصلحا اجتماعيا حرر العقول ودفعها للعمل بكل قوة وإرادة رغم كل العراقيل التي واجهته منذ دخوله ميدان الإصلاح والعمل السياسي، وحتى نرفع اللبس ولو بصورة موجزة عن كل ما قيل عن جمعية العلماء المسلمين، ورئيسها عبد الحميد بن باديس بأنه لم يكن متحمسا لخوض الكفاح العسكري، هو كلام لا أساس له من الصحة بدليل أن استقراء الوقائع والأحداث التاريخية تفيدنا كلها بأنه كان للرجل حماس زائد ونبرة قوية وهو يتعامل مع المستعمر، والمواقف التي ذكرناها سابقا تؤكد صلابة الرؤية التي كان يؤمن بها ابن باديس وكل رجال الجمعية، لكن الطابع الإصلاحى والحنكة السياسية تقتضي أحيانا التعامل مع الظروف المحيطة بلغة خاصة لا يفهمها إلا القادة الأكفاء أمثال ابن باديس، لأنه كان يدرك كل الإدراك، أن الفرنسيين يستغلون كل الفرص للقضاء على الجمعية وأهدافها المقدسة.

5. أهداف الإصلاح في الميدان التربوي:

لقد كان لابن باديس جملة من الأهداف من وراء الإصلاح التربوي ومن أبرزها أنه كان يهدف إلى تحقيق كمال الحياة الفردية والاجتماعية أو بالأحرى إعداد الفر إعدادا فكريا وسلوكيا ليمثل أمتة أحسن تمثيل ويبلغ بها إلى أسمى درجات العلم والمعرفة والتربية النموذجية التي تجعلها في مصف الأمم الراقية المتحضرة، لذا يقول ابن باديس: "إن كل ما نأخذه من الشريعة علما وعملا فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال حياتنا الفردية والاجتماعية" ²⁰ (رابح تركي، عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، 1969م، ص250).

ويسعى الشيخ أيضا إلى تكوين الشباب على الاستقامة الخلقية بغية النهضة الشاملة لمواجهة الحياة وتعويدهم على حل المشكلات الصعبة التي تعترضهم، بنجاح وكذلك دفعهم إلى ضرورة الاستفادة من الأزمات والعمل على إيجاد السبل الكفيلة بحلها حلا معقولا ودائما كما يذهب الشيخ بفضل حنكة تفكيره إلى هدف إنساني عظيم الشأن وهو إعداد الفرد للمساهمة في بناء الحضارة ومواكبة العصر في التفكير والعمل مع التركيز على البعد الزمني، والحضاري، ومواكبة مستجدات العصر، إلى جانب تحسيس الأفراد بضرورة مواجهة كل أصناف الصراع الحضاري الذي تستخدمه تقنيات الأمم والشعوب ولهذا يشير قائلا: "إذا أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب وطرق المعاشرة والتعامل... كن عصريا في فكرك وعملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك، في تمدنك وفي رقيك"²¹ (مجلة عالم الفكر، 1988م، ص 179). وكان لابن باديس هدف آخر من وراء هذا الإصلاح التربوي وهو خدمة إنسانية يختلف مذهبها ونزعاتها، وفي كل اتجاهاتها وذلك لإبراز مكانة الفرد كإنسان متخلق واثقف يساعد في خدمة الإنسانية وتحرير الشعوب.

ومن خلال كل ما قدمناه آنفا نستنتج أن الشيخ كان يهدف من وراء عمله إلى رسم خطة تربوية تفيد الأمة في حاضرها ومستقبلها بما يتماشى وسنة الكون من تغير وتحول دون المساس بالأصول التي هي في نظره المعالم البارزة التي تحفظ للأمة استمراريتها بين الشعوب والأمم، لذلك يعتبر جانب المعلم والمربي من أبرز جوانب ابن باديس وأقواها فقد ركز على التربية والتعليم معظم نشاطاته، ويعرف التربية على أنها: "جهد إنساني هادف موجه لرعاية الفرد والمجتمع ويسعى لبناء الفكر وتنقيف العقل وتقويم الأخلاق وتقوية البدن من أجل بناء شخصية متكاملة". والطريقة التي يراها الشيخ ابن باديس صالحة وكفيلة لتحقيق الغاية التربوية والي يمكنها أن تربي الأجيال الصاعدة وتساهم في بناء الأمة هي الطريقة النبوية وفي هذا يقول ابن باديس: "ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا راجعنا به للتعليم النبوي في شكله ومضمونه، في مادته وصورته، فيما كان يعلم الرسول عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم أنه قال: (إنما بعثت معلما)"²² (طالبي عمار، ابن باديس حياته وآثاره، 1968م، ص 117).

ومن ثم ناد المصلح بضرورة الرجوع إلى المنهج التربوي الذي سار عليه الرسول الكريم وصحابته في التعليم الديني والذي كون به رجالا قدموا للأمة الإسلامية أشياء عظيمة لذا يحرص ابن باديس على الاهتمام بالتعليم الديني، القرآني، السني لأنه لاحظ نشوز الناس عنه وهذا ما بينه في أحد أقواله: "فأين

من تعليمنا اليوم وقبل اليوم، بل منذ قرون فقد حصلنا على الشهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ونحن لم نسمع من شيوخنا يوما منزلة القرآن والتفقه فيه ولا منزلة السنة النبوية من ذلك²³ (عبد الحميد بن باديس، آثار عبد الحميد بن باديس، د ت، ص 74).

إن ابن باديس اعتبر مناهج التدريس المعتمدة في الجزائر جوفاء وتشوبها العيوب لأنها لا تعتمد على المبادئ، والأسس التربوية النبوية والتي من صفاتها أسلوب المعاملة بالقُدوة والموعظة الحسنة والتوجيه وأسلوب المحاور.

ونجد أنه قد اعتمد هذا المنهج في التربية والتعليم وبرهن على مفعوليته، وأعطى الدليل الملموس على ذلك والمتمثل في المستوى الذي بلغه تلاميذه والدور الذي قاموا به في إطار الحركة الإصلاحية والتعليم، فكانوا ركائز لا تحطم ودعائم قوية للنهضة الإسلامية في الجزائر، وقد اعتمد ابن باديس على أسس صلبة في التربية والتعليم واختارها بحسن نية وبلاغة تفكير وروية، ومن أهم هذه الأسس: هي إقامة التربية على تعليم العقيدة والأخلاق الحسنة، ومن ثم ركز على الجانب التربوي تحت غطاء ديني لماله من أهمية في بناء الأمة وخدمة الشعوب.

كما تقوم التربية عند الشيخ على أساس إعداد الفرد بالاعتماد على التفكير الذاتي المستقل والغرض من ذلك هو تكييف العقول على التفكير المنطقي وفي هذا الصدد يقول: "إن كان التفكير لازما للإنسان في جميع شؤونه وكل ما يتصل به إدراكه.... فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من الوسائل وفيما ينظر من الأدلة، تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن تفكير غيره"²⁴ (محمد الصالح الصديق، الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من آرائه ومواقفه، 1983م، ص 16).

ولم يتوقف إصلاح ابن باديس في هذا الجانب رهين الحدود الجغرافية للوطن، ولكنه تعداه إلى أبعد من ذلك حيث ناد بإصلاح جامع الزيتونة بتونس لما رأى من سوء أحوال وتدهور كبير في هذا المجال، ومن ثمة بين ابن باديس رأيه في هذه المسألة وكانت له كلمة في هذا الجانب حيث قال: "جامع الزيتونة كلية دينية فلا يكون إصلاح التعليم فيه إلا على مراعاة هذا الوصف الذي هو أساسه وغايته..."²⁵ (عبد الحميد بن باديس، آثار عبد الحميد بن باديس، د ت، ص ص 57-58).

وخلاصة القول أن ابن باديس قد آمن بأن الطريق السليم لإحداث النهضة في الجزائر وإنقاذها من كل خطر إنما يكون بواسطة التربية الإسلامية فقط لأن الجزائريين شديداً التمسك بالدين وعاطفتهم الدينية جياشة للغاية ومن ثمة نهج عملية قيادتهم عن طريق الدين، كما كان يرى أن هذا السبيل هو

الذي يجب أن تعلق عليه الآمال في تحرير الجزائر من الاحتلال وإقامة نهضة شاملة فيها على أساس حضارتها العربية الإسلامية من جهة أخرى.

6. الجانب الفلسفي في فكر الإمام ابن باديس الإصلاحية:

ما يمكن الإشارة إليه من خلال هذا المبحث أن ابن باديس لم يكن فيلسوفا بالمعنى الأكاديمي لمعنى الفلسفة حيث لم يكن له مذهب فلسفي بخواصه وصفاته كمذاهب فلاسفة الإغريق أو مذاهب فلاسفة المسلمين، وهو فيلسوف إذا قصدنا بالفلسفة معنى الحكمة التي يروض بها الحكيم نفسه على المسلك الذي ينبغي له كما يراه والغاية التي يسعى إليها أو حينما تكون الفلسفة بحثا عن سر الوجود ورأيا في كليات الحقائق يحيط بأجزائها ويستعان بها على تفسير تلك الأجزاء.

وقد عبر عن هذه الفلسفة بكل ملامحها في دروسه في "تفسير القرآن الكريم" و"شرح الحديث النبوي الشريف" ثم في دروس "العقائد الإسلامية" وهناك ملاحظة ينبغي الإشارة إليها قبل التطرق في بيان ملامح فلسفة ابن باديس وهي أن الإمام قبل كل شيء هو عالم مسلم يعمل في الدائرة الإسلامية ويحاول أن تكون أعماله وأقواله ملتزمة بكل دقة بفلسفة الإسلام في أواخره، ونواحيه، وهو كذلك مصلح من أتباع المدرسة الإصلاحية السلفية التي ظهرت في القرن الثامن عشر.

وإذا بحثنا عن مضمون فلسفة ابن باديس في تراثه الذي بين أيدينا نجد أنه قد تناول جملة من القضايا الفكرية الهامة التي شغلت الفكر الإسلامي قديما وحديثا ويمكن إجمالها في الأمور التالية: نظرتة إلى الكون، نظرتة إلى الطبيعة البشرية.

ونحاول عرض أهم المسائل الفلسفية التي خاض فيها الشيخ بطريقته المميزة، وأهم هذه المسائل

نذكر:

1.6. نظرتة إلى الكون:

حيث يرى أن هناك إلها في هذا الكون يتصف بالوحدانية والقدرة والإرادة والعلم والحياة وغيرها من الصفات الإلهية، هو الذي خلق الكون من العدم وأبدعه على غير مثال سابق في أحسن صورة وهو الذي يحفظه وينظم أموره ويدبر أحواله ويسير شؤونه في نظام محكم دقيق، وهو يرى أن نظام هذا الكون مطرد وعام وهو ما يطلق عليه المنطق الحديث اسم مبدأ الختمية في الطبيعة، لكن ابن باديس يمتاز عن غيره من الفلاسفة بأنه: "لا ينسى بأن هذا النظام الكوني العجيب هو من صنع الله الذي يخلق العالم ومن فيه، وما

فيه ويحفظه"²⁶ (رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، 1969م، ص ص 197-199)، وتتلخص نظرتة إلى الكون في:

• **الأسباب والمسببات:** يقر ابن باديس أن الله قد أودع في الكون أسبابا تؤدي حتما إلى مسبباتها

بمشيئة الله خالق الأسباب والمسببات معا، وعلى البعد أن يتخذ من الأسباب الموضوعية وسيلة للتحرر والعمل والنتيجة في كل الأحوال يعلمها الله وحده، فالعبد بالعمل والله بالتوفيق والسداد.

• **الحسن والقبيح:** لقد أخذت هذه المسألة اهتماما كبيرا من جهود الفلاسفة المسلمين وعلماء

الكلام منذ القرون الأولى للإسلام حيث فسرها وحللها كل واحد منهم بمنظوره الخاص وحسب طبيعة تشيعه للمذهب أو تيار فلسفي معين، أما ابن باديس فإنه في هذه المسألة يقرر بأن حسن الطاعات وقبح المعاصي مركوز في العقول وأن من رحمة الله بعباده أنه قد أعطى العقل الإنساني قدرة يميز بها بين الحسن والقبيح والفضيلة والرذيلة والخير والشر حتى يسهل عليه إتباع الشرائع السماوية التي أوحى بها الله إلى رسله لدعوة الناس إلى فعل المحاسن وترك القبائح وحتى يترتب الثواب أو العقاب على اختيار الإنسان لما يعلم بعقله أنه حسن أو قبيح.

يقول ابن باديس: "ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن ركز في فطرتهم إدراك أصول القبائح والمحاسن ليسهل انقيادهم للشرع عندما تدعوهم الرسل إلى فعل المحاسن وترك القبائح"²⁷ (محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، 1968م، ص 111).

وعلى هذا فإن ابن باديس في مسألة الحسن والقبح يذهب مذهب المعتزلة لا مذهب أهل السنة لأنه يمجّد العقل ويميل إلى تحكيمه في كل ما لا يتعارض مع نص صريح من الدين. يقول ابن باديس: "إن ما أمرهم الله به هو الحسن المحبوب وأن ما نهاهم عنه هو القبح المبعوض فعملوا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هي على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة وأنه تعالى لا يأمر بقبح ولا ينهاه عن حسن"²⁸ (محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، 1968م، ص 117).

• **الخير والشر:** يرى في هذه المسألة أن هناك نوعان من الشر في هذه الحياة أحدهم ذاتي والآخر

نسبي، فالشر الذاتي هو الذي لا ينفك عن طبيعة الشيء كالكفر والضلال وجميع الرذائل التي يأبأها الشرع والعقل، أما الشر النسبي فيضرب له الشيخ مثلا عليه بالمال: الذي سماه الله خيرا في القرآن يكسبه صاحبه

من الوجه المشروع وينفقه في الوجوه المشروعة ويتحرى به رضا الله في جمعه وتفريقه فيكون خيرا بذاته، ويعمل صاحبه ويتصرف فيه بعكس ذلك فينفقه في أوجه الحرام كالخمر والميسر وغيرها... فيكون شرا لا من ذاته بل من عمل صاحبه وهذا هو الشر النسبي في رأي ابن باديس، أما الخير فهو بين في ذاته ولا يحتاج إلى تعريف ولا إلى توضيح.

ويذكر ابن باديس أن الخير والشر لا يظهران إلا في أعمال الإنسان المكلف فقط دون غيره من المخلوقات الأخرى فهو وحده الذي يتصلان بحياته اتصالا وثيقا. ويلتقي ابن باديس في مسألة الخير والشر الذاتي مع المعتزلة الذين يقولون بالخير المطلق والشر المطلق بخلاف أهل السنة الذين يعتبرون الشر والخير أمران إضافيان. كما يقول أن من تمسك من البشر بالأسباب، بلغ بإذن الله إلى مسبباتها بقطع النظر عن كونه مؤمنا أو كافرا، صالحا أو طالحا، ويضرب مثلا عن اطراد الأسباب والمسببات بحالة المسلمين في أيام حضارتهم الزاهرة خلال القرون المحجرية الأولى عندما أخذوا بأسباب الحياة كما يأمرهم دينهم فبلغوا حظا عظيما في المدينة والحضارة، أما عندما تركوا الأخذ بالأسباب فقد تأخروا وتقهقروا.

في هذا يرى ابن باديس: أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء أن من تمسك بسبب بلغ بإذن الله إلى مسببه سواء كان برا أو فاجرا، مؤمنا أو كافرا وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربه في أخذ بتلك الأسباب. وبهذا المعنى نفهم أن الأسباب الكونية التي وضعها الله في هذه الحياة وسائل لمسبباتها موصلة بإذن

الله تعالى من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه بمقتضى أمر الله وتقديره وسننه في نظام هذه الحياة والكون ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق بالمرسلين، وهذا ما نلمسه اليوم في واقع الحضارة الغربية التي بلغت مكانة مرموقة في العلوم والتكنولوجيا، لأنها وفرت كل أسباب النجاح، والتقدم، على خلافنا نحن المسلمين فقد فقدنا كل ثقة بالنفس وسلمنا بالأمر الواقع الذي لن يتغير من ذاته ما لم نغير نحن فيه، وعلى هذا الأساس يتوسع الإمام في هذه النقطة إذا يرى أن الأخذ بالأسباب التي تؤدي بالضرورة إلى مسبباتها لا يتنافى مطلقا مع الإيمان بالقضاء والقدر لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكل من أسباب ومسببات وقد قضى ذلك في علمه الأزلي وقدره على العباد ونحن لا نعلم الغيب الذي ينفرد الله وحده بالعلم به وبالتالي نجعل كل ما خبأته لذلك فنحن مطالبون فقط بالعمل بالشرع الذي هو معلوم لنا، وترك أمر الغيب لخالق الكون وحده، والشرع يثبتنا على الأخذ بالأسباب

للحصول على نتائجها وهي المسببات وذلك من أجل سعادتنا ونعيمنا، يقول ابن باديس: الشرع معلوم لنا وضعه لتيسر عليه أعمالنا، والقدر مُغيَّبٌ عنا أمرنا الله بالإيمان به لأنه من مقتضى كمال العلم والإرادة من صفات ربنا فالقدر في دائرة الاعتقاد والشرع في دائرة العمل وعلينا أن نعمل بشرع الله ونتوسل إلى المسببات المشروعة بأسبابها كتوسلنا للنسل بالزواج وللزراع بالحرث للعلم بالتعليم وهكذا مع الإيمان بالقدر ونؤمن بصدق قدر الله فلا يكون إلا ما قدره لنا ومن سبقت له السعادة يسير لأسبابها ومن سبقت له الشقاوة يسير لأسبابها.

وفي نفس الفكرة -فكرته تجاه الكون- يتطرق ابن باديس إلى نقد طرائق علماء الكلام في الاستدلال على العقائد حيث أعاب عليهم طريقة الاستدلال على العقائد الإسلامية كوجود الله وقدرته ووحدانيته، إلى آخر الصفات الإلهية وذلك لأنهم يستخدمون أدلة ومصطلحات فلسفية لا يكاد يفهمها الطالب المتخصص فضلا عن المسلم العادي من عامة الناس ويرى أن العقائد الإسلامية ينبغي الاستدلال عليها بأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية فقط حتى تستطيع العقول فهمها والاقتناع بها عقليا ووجدانيا دون اللجوء إلى أقوال العباد أو المذاهب الفلسفية اليونانية ومنطق أرسطو.

وقد اتبع ابن باديس الاستدلال على العقائد الطريقة القرآنية والنبوية ودرسها لتلامذته لهذه الأسباب كما يتضح ذلك من أملاءاته في العقائد التي صدرت في كتاب (العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية) وهذا بعد وفاته وقد اعتبر طريقة المتكلمين في الاستدلال على العقائد الإسلامية من الإعراض عن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ومن التعقيد، والتصعيب على عقول عامة المسلمين في فهم العقائد الإسلامية.

يقول ابن باديس: أدلة العقائد مبسوبة في القرآن بغاية البيان ونهاية التيسير وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه وبيانها وتفصيلها في سنة النبي عليه الصلاة والسلام الذي أرسل ليعين للناس ما نزل عليهم، فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم، أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه في نظره من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريقة العلم إلى عباده وهم من أشد الحاجة إليه، وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ويرى ابن باديس أن ما حل بالمسلمين من نكبات على مر العصور في أمور العقيدة هو لسوء فهمها واختلاط الأمور عليهم نتيجة الصراع والجدل العقيم الذي جرهم إليه علماء الكلام الذين أعرضوا

عن استخدام القرآن والسنة، ولهذا رفض الشيخ طريقة المتكلمين في الاستدلال على العقائد وفضل عليها الطريقة السلفية وهي طريقة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وهنا يبرز المنهج السلفي السني جليا في تناول ابن باديس لمختلف المسائل الإصلاحية.

2.6. نظرتة إلى الطبيعة البشرية:

ما ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن النظرة إلى الطبيعة البشرية تختلف باختلاف الفلسفات التي تناولتها كالفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة، حيث اعتبرت الفلسفة القديمة الإنسان على أنه مكون من جزأين متباينين هما الروح من جهة والجسم من جهة أخرى والجزء الأول متصل بالعالم العلوي، أما الجزء الثاني فهو متصل بالعالم السفلي. أما الفلسفة الحديثة فترى الطبيعة البشرية على أنها مرنة يمكن التأثير عليها بالتربية والتعليم والبيئة الاجتماعية التي توفرها للمتعلمين، هذا باختصار حول مفهوم الطبيعة البشرية في الفلسفات السابقة، فما هو رأي ابن باديس في مفهوم الطبيعة البشرية؟ وما هي الفلسفة التي يميل إليها الشيخ؟

يتفق ابن باديس إلى حد كبير مع النظرة الحديثة لطبيعة البشرية فهو يرى أن هذه الطبيعة مرنة وأن الإنسان مكون من عقل وروح وجسم وليس هناك أفضلية بين هذه العناصر الثلاثة التي يجب المساواة بينها والاعتناء بها عن طريق صقلها بالعلوم والمعارف، ويجب عليه أن يعطي لكل عنصر منها حقه، فيعني بروحه بتربيتها وترويضها على الصالحات وبجسمه بكل ما ينمي له لأن الجسم آلة للروح، لذلك فمن العدل الإلهي أن يكون لها حضنها ومن الواجب على الإنسان أن يعطيها حقه وقد أكد هذا المعنى في قوله: "حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاث: الإرادة والفكر والعمل (...)"²⁹ فالفكر الصحيح من العقل الصحيح والإرادة القوية من العقل المتين والعمل المفيد من البدن السليم (مجلة الشهاب، 1936م، ص 13) فلهذا كان الإنسان مأمورا بالمحافظة على هذه الأمور الثلاث عقله وخلقه وبدنه، ودفع المضار عنها فيثقف عقله بالعلم ويُقَوِّم أخلاقه بالسلوك النبوي ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والترويض بالعمل.

فابن باديس كما يتضح من خلال ما ذكرناه أن هناك تعادل بين الروح، والجسد، والعقل، والإنسان مطالب بالمحافظة عليهما والاعتناء بهما على السواء فهو ينظر إلى الإنسان على أنه كل متكامل لا تنفصل روحه عن جسمه ولا ينفصل جسمه عن عقله لأنه إذا حدث شيء من ذلك فقد الإنسان حياته

بالمرة وبذلك فهو يتفق مع الفلسفة الحديثة في النظرة إلى الطبيعة البشرية لا يعني أنه يستنسخ أفكارها بالتمام ولكن هو يتفق معها في نوع الطرح دون أن يتعارض ذلك مع المنطلقات الشرعية التي يراها ابن باديس الحصن الحصين لكل مفكر في شؤون الكون أو في طبيعة الإنسان، وهذا ما يعكس الطابع الأصيل لفلسفة ابن باديس.

7. خاتمة:

يمكن إيجاز الخصائص الإصلاحية عند ابن باديس فيما يلي:

● لقد اهتم بتصحيح المفاهيم والعقائد بالاعتماد على تفسير القرآن لتنقية العقول من التقاليد الفاسدة والبدع الباطلة والخرافات الزائفة.

● اهتم بالتربية والتعليم في المدارس للنهوض بأبناء المسلمين وإخراجهم من وحل الجهل إلى نقاوة العلم.

● كما كان ابن باديس أشد صرامة في مقاومة الطريقة المنحرفة عن جادة الإسلام والموازية للإدارة الاستعمارية.

رغم أن ابن باديس التقى مع غيره من المصلحين في طريقة إصلاحية وتجديده، لكن يبقى له طابعه الخاص وتبقى لحركته خصائصها المتميزة إذ تميزت حركته في الإصلاح بجهوده الدءوبة في التعليم الذي بدأه بنفسه قبيل الحرب العالمية الأولى في الجامع الأخضر بقسنطينة، وانتهى بتلك الشبكة من المدارس المنتشرة عبر الوطن كله، وقد ارتبطت تلك الجهود التعليمية بالدعوة الشعبية العامة للإصلاح الإسلامي ارتباطا وثيقا العرى وتشربوا من مبادئها وأخلصوا لها في مجالي التربية والتعليم اللذين صاروا لا يفترقان.

وإذا كانت الطرق الصوفية في الجزائر قوية تستند على ملايين العامة من جهة وعلى الإدارة الاستعمارية من جهة أخرى، فإن ابن باديس كان متصلا بكل الطبقات الاجتماعية على اختلاف مشاريعها محاولا في كل أعماله وتوجهاته توعية العامة ودفعهم نحو الطريق الصحيح في حياتهم المتعددة الجوانب وبالخصوص من الناحية العقائدية.

وبالرغم من أن ابن باديس لم يصطدم بمؤسسة تعليمية تقليدية إلا أن منهجه الإصلاحية لم يخلو من نقد تربوي وعلمي للبرامج المتبعة في التعليم الإسلامي إبان عهده سواء في الزيتونة أو في الأزهر ويقول الأستاذ فتحي عثمان: "ويبدو وفي جلاء شخصيتي ابن باديس ومُجدّ عبده ونشاطيهما أن الأول كان أكثر حركية أما مُجدّ عبده فقد كان رجل بحث وعلم وتأليف وتدرّيس بوجه خاص، ولم يكن رجل عمل شعبي

منتظم مستمر مثل ابن باديس الذي كان صابرا على العمل آناء الليل وأطراف النهار دعوبا على الحركة مؤمنا بالعمل الشعبي في قاعدته الواسعة قادرا على ممارسة العمل ومتاعبه مصاعبه". وإذا كان مُجدّ عبده يعطي للأمة علما وفكرا فإن مؤسساته انتهت بموته غالبا، أو قد استمرت قليلا بعد وفاته، كما أن مجلسه لم يكن يخرج عن حوار الخاصة لكن ليس في استطاعته أن يعايش الجماهير كثيرا وقد تعقدت نفسه من العمل السياسي، أما ابن باديس كان بحق رجل الجماهير العامل معها، رغم مكانته الرفيعة ومكانة أسرته بين تلك الجماهير المتعطشة إلى الحرية والإنعتاق، وقد جاء نشاطه صورة صادقة لطاقته الحركية هذا بالإضافة إلى عقليته الحكيمة المدبرة وبديته السريعة بل إن كتاباته ودروسه وخطبه علاوة عن جهوده العلمية تلهب مشاعر المسلمين وتدفعهم إلى الدفاع عن الإسلام والوطن، وهكذا كان ابن باديس رجل العصر وزعيم الأمة وقائد الجماهير ورمز الجهاد والقعدة الحسنة في الدفاع عن الدين، والوطن، وطلب العلم، والحرية. وعلى هذا الأساس سنحاول الوقوف بالتفصيل على مختلف الجوانب التي مسها الإصلاح الديني بغرض الإفادة والاستفادة.

فمن الناحية الدينية نجده قد ركز عمله على إعداد الرجال القرآنيين لأنه كان يعتقد أن هذا النوع لا تقف في وجوههم إلا قوة الله. كما أن الشيخ قد آمن بأن تخلي الناس عن الجانب العقائدي هو سبب تأخرهم وجهلهم فحاول التركيز على هذا الجانب مباشرة في حين أن هناك عوامل ودوافع مختلفة كالجهل والأمية التي تقف كعقبة في وجه المسلمين آنذاك وبالتالي تبعدهم عن دينهم من غير قصد في نفوسهم، وهو بهذا قد اتجه إلى الهدف مباشرة وكان من الضروري أن يقف على مراحل في غاية الأهمية قبل التطرق إلى الجانب العقائدي.

أما من الجانب السياسي فقد كان نظريا أكثر منه عمليا وهذا ما أدى إلى التقليل من أهميته إلى حد كبير. كما كان متحفظا من العمل الثوري الذي ظهر في الأخير على أنه الحل المناسب، ولأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بها. والحقيقة أن الموقف من العمل الثوري لم يكن موقفا شخصيا بل هو موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت ترى فيه أنه في صالح الأمة والوطن.

ومن جانب التربية والتعليم نجده قد اهتم بالإعداد الفكري السلوكي وكأن كل الظروف مهيأة لهذا الإعداد، كما حصر التربية فيما هو تابع للنص الشرعي وفي هذا تهميش للاجتهادات التي حاولت التوفيق بين ما هو نقلي وما هو عصري اجتهادي، ولو أن ابن باديس لم يهمل مكانة العقل تماما بل أسس لها

ودافع عنها، وعن فلسفته فأول شيء يجب الإشارة إليه هو أنها لم تكن بالمعيار والخصائص التي كانت بها الفلسفات التي سبقته أو عاصرته، لكن إذا نظرنا إليها من جانب التفلسف نجد أنها كلها حديث عن التربية والسياسة، والدين، والأخلاق لكن في قالب مغاير يطغى عليه جانب النظر المجرد بكثير وأيضا المبصومة بالطابع الديني لا تجعلنا نفرق بين عمله في ميادين الإصلاح المختلفة وبين عمله الفلسفي، لكن رغم هذا فقد أعطى تصورا جديدا للفلسفة الإسلامية خاصة في جانب الإلهيات والكون والإنسان والتربية زد على هذا فإن ابن باديس لم يكن غرضه التفلسف بقدر ما كان يسعى إلى وضع الحدود العقلية، والشرعية للمسلمين حتى لا يقعوا في المزالق، والانحرافات العقلية التي تبنتها مختلف الفلسفات التي حاولت تشويه الفلسفة الإسلامية وإذابتها في فلسفاتهما التي لا تعود على المسلمين بأي فائدة تخدم دينهم أو دنياهم، وبالرغم من كل هذا تبقى أعمال ابن باديس الإصلاحية مبصومة في ذاكرة الأمة على أكثر من صعيد على أنها تجربة نضالية رائدة في عالم الإصلاح.

8. قائمة المراجع:

- 1- رابح تركي، عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، ط 1، الشركة الوطنية للطبع والتوزيع، 1969م.
- 2- سلوادي حسن عبد الرحمان، عبد الحميد بن باديس مفسرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 3- سورة الحجرات، الآية 13.
- 4- شريط عبد الله ومُحَمَّد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ط2، مكتبة البعث، قسنطينة، ماي 1965م.
- 5- طالي عمار، ابن باديس حياته وآثاره، ج1، دار وكتبة الشركة الجزائرية، 1968م.
- 6- عبد الحميد بن باديس، آثار عبد الحميد بن باديس، ج 4، ط 1، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، د ت.
- 7- عبد الحميد بن باديس، أصول الدعوة الإسلامية، القبة الجزائر، 1983م.
- 8- عبد الحميد بن باديس، العقائد الإسلامية، د ت.
- 9- فهمي سعد، حركة ابن باديس ودورها في يقضة الجزائر، ط 1، دار الرحاب للطباعة والنشر، لبنان، 1983م.
- 10- مجلة الشريعة النبوية المحمدية، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، د ت.

- 11- مجلة الشهاب، العدد 49، السنة الثانية، 1936م.
- 12- مجلة الشهاب، ج4، ربيع الأول 1353هـ جويلية 1934م.
- 13- مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع عشر، العدد الأول، وزارة الإعلام الكويتية، أبريل-مايو-يونيو 1988م.
- 14- مُجَدِّ الصالح الصديق، الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من آراءه ومواقفه، ط 1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة الجزائر، 1983م.
- 15- مُجَدِّ الميللي، ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، د ت.
- 16- مُجَدِّ طاهر فضلاء، أعلام الجزائر قال الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس، 1968م.
- 17- محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف بمصر، 1968م.
- 18- يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، مؤسسة وهبة، القاهرة، 1973م.
- 19- Kadache Mahfoud, Histoire de nationalisme Algérien, 2^{ème} Edition, Tome 1, Entreprise national de livre, Alger.